



The Journal of Academic Social Science Studies

JASSS

International Journal of Social Science

Doi number:<http://dx.doi.org/10.9761/JASSS7645>

Number: 70 , p. 547-553, Autumn I 2018

Araştırma Makalesi / Research Article

Yayın Süreci / Publication Process

Yayın Geliş Tarihi / Article Arrival Date - Yayın Kabul Tarihi / The Published Date

22.05.2018

30.08.2018

Yayınlanma Tarihi / Publication of Acceptance Date

30.09.2018

THE SECRET OF THE BEAUTY OF THE SPEECH OF THE PROPHET

سِرّ جمالِية البيان النبوي

Dr. Fatima Zahra Nahmar

ORCID ID: <https://orcid.org/0000-000>

*University of Blida 2 Algeria Department of Arabic Language and Literature,
zahraanahmar@gmail.com*

Abstarct

The Prophet, may Allah's peace and blessings be upon him, singled out a number of characteristics in which the Prophets, Messengers, and Creation were distinguished by the most important of which is the Prophet's Hadith. This is in honor of his position and honor for his position. And the impact of the human, scientific, spiritual and moral perfection of the Prophet (PBUH) at the height of his position, addresses the following problems: What is the secret of the aesthetics of the Prophet's statement? And what made him influential in the soul

Key Words: the Speech of the Prophet, the Secret, the Beauty, the Influential, the Soul

الدكتورة: فاطمة الزهراء نهمار

جامعة البليدة- 2 - الجزائر

قسم اللّغة العربية و آدابها

محاضرة أ

zahraanahmar@gmail.com

الملخص :

اختص الله عز وجل رسوله الكريم محمد ﷺ بجملة من الخصائص فاق بها الأنبياء والرسل والخلق أجمعين من أهمها الحديث النبوي، وهذا تكريماً لمقامه وتشريفاً لمكانته، كيف لا وهو خاتم الأنبياء والرسل وخير خلق الله، فهذه المداخلة هي محاولة للغوص في أعماق البيان النبوي للكشف عن خبايا جماليته وتأثيره في النفوس، تهدف إلى معرفة مكانة الحديث النبوي الشريف، ومدى تأثير الاكتمال الإنساني والعلمي والروحاني والخلقي للنبي عليه الصلاة والسلام في علو منزلته، تعالج الإشكالية الآتية: ما سر جمالية البيان النبوي؟ وما الذي جعله مؤثراً في النفوس؟

الكلمات المفتاحية : البيان النبوي - السر - الجمالية - التأثير - النفوس

مقدمة :

لقد تحدث القرآن الكريم في نصوص عديدة عن سموّ البيان النبوي وعلوّ مكانته، إذ وصفه بالقول البليغ في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقُلْ لَمْ يَأْتِ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾¹، فهذه الآية هي " شهادة الله لرسوله ﷺ بغاية القدرة على الكلام البليغ، والبيان الناجع الأثر في أعماق النفوس، فقد أمره الله تعالى أن يعظ هؤلاء المنافقين ليرتدعوا عن نفاقهم، وأن يقول لهم ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين، وهذه فئة مريضة معقدة الأساس، يحتاج إفهامها والتأثير فيها إلى قوة أسلوب وبلاغة بيان فوق غيرهم من الناس، فكان أمره ﷺ بهذا الأمر شهادة له بغاية القدرة على الكلام البليغ، والأسلوب العميق الأثر في النفوس، مع الحكمة البالغة " ².

وشهد ذلك أيضاً صحابته رضوان الله عليهم وهم جيل فصاحة وبيان، وهم الذين تدفّقوا إعجاز القرآن الكريم وخضعوا لبيان المعجز، فهذا عرياض بن سارية " قال: وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ " ³.

فما الذي جعل البيان النبوي مؤثراً في النفوس؟ وما سبب سموه وعلوّ مكانته؟ وما سرّ جماليته؟ بعد الاطلاع على الكتب التي تصبّ في الموضوع وقراءتها والتأمل فيها ووجدت أنّ السرّ أعمق بكثير، يعجز العقل البشري عن الكشف عنه، لأنّه يتعلق بسيد الخلق وأعظم قدوة للناس أجمعين، وصل إلى مرتبة سامية عظيمة، وقد بدا لي أنّه يمكن جعله في ثلاثة أمور متمثلة فيما يلي :

1 - الاكتمال الإنساني والعلمي والروحاني والخلقي :

سموّ البيان النبوي ناتج عن سموه ﷺ، وعلوّ مكانته ناتج عن عظمته ﷺ، فمحمد عليه الصلاة والسلام يمثل الكمال المطلق في التكوين الإنساني والعلمي والروحاني والخلقي، فهو المثل الكامل في شرف نسبه، وفي كرم أسمائه، وفي جمال خلقته ودقة تصويره، وفي قوة عقله وجرأة ذكائه، وفي استقامة فطرته، وفي فصاحة لسانه، وفي بلاغة بيانه، وفي وجدانه، وفي شعوره، وفي نفسيته، وفي تعبده، وفي شريعته، يضاف إلى ذلك أنّ الله تعالى تعهده منذ الصغر بالتربية المثلى والتأديب السامي⁴ وقد زوّي عنه عليه الصلاة والسلام : " أنبني ربّي فأحسن تأديبي"⁵ كما أحاطته العناية الإلهية الربانية لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾⁶.

أ - نسبه الزكي الشريف :

يتميّز نسب محمد ﷺ بالاصطفاء الإلهي، فقد اصطفى الله تعالى الفروع الزكيّة من الأصول الكريمة اصطفاءً مبنياً على الأخلاق الكريمة، والفضائل الإنسانية السامية، والطباع الفطرية السليمة، ويضاف إلى ذلك النبوة والرسالة بالنسبة إلى إسماعيل والنبي عليهما السلام.

وقد ورد في صحيح مسلم من " باب فضل نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النَّبِيِّ " أنّه عليه الصلاة والسلام قال: « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »⁷ رواه مسلم .

ذكر البخاري في صحيحه نسب محمد عليه الصلاة والسلام في " باب مبعث النبي ﷺ " فقال : « مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُرَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مَضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍ بْنِ عَدْنَانَ »⁸.

روى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده بسند " عن الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ، قَالَ: قَالَ الْعَبَّاسُ: بَلَغَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمَبْنَرُ، فَقَالَ: " مَنْ أَنَا؟ " قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: " أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخُلُقَ

فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا⁹.

ب - أسماؤه الكريمة:

للنبي عليه الصلاة والسلام أسماء كثيرة تعكس شرف المسمى ومدى تحليه بالفضائل والآداب والميزات، أشهرها خمسة وهي خاصة به وحده، جاء في صحيح مسلم " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي، الَّذِي يُمْحَى بِِي الْكُفْرُ، وَأَنَا الْخَاشِرُ الَّذِي يُخْشِرُ النَّاسَ عَلَى عَقِيبي، وَأَنَا الْعَاقِبُ وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ»¹⁰

وأما الأسماء الأخرى فقد يشاركه فيها غيره من الأنبياء منها : المذكر، والرحمة، والنعمة ، والأمين، والمزمل، والمدنر، والرؤف، والشهيد، والرحيم، الشاهد، والمبشر، والنذير، والمبين، والداعي إلى الله ، والهادي، والسراج المنير، والشفيع والمشفع، والصادق والمصدق ، والمختار والمصطفى¹¹.

ج - سيرته وعظمة أخلاقه :

كان عليه الصلاة والسلام أكمل الناس خلقاً وصوراً ونشأةً وتربيةً ، خلَّقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه، عُرف بالصدق، والأمانة، والوقار، والحلم، والحياء، والرحمة، والعفو، والتواضع، والعدل، وترك الفواحش والظلم والصفات المذمومة، لم يُعْبَ قط في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه¹²، " عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ " ¹³ رواه أحمد في مسنده.

وقد وصفه الله تعالى فقال : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾¹⁴ وقوله أيضا : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾¹⁵.

أضف إلى ذلك فقد كان أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ولم يتلمذ على يد أحد، وفي ذلك حكمة كبيرة حتى لا يقول الكافرون والجاحدون بأن هذا الذي يدعي ما يدعي علمه بشر .

د - نبوته وتبليغه للرسالة الربانية العالمية الخاتمة :

لما بلغ عليه الصلاة والسلام سن الأربعين نبأه الله تعالى وأوحى إليه، وأول ما بدأ به الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا ويحقق صدقها، وبعد ستة أشهر نزل عليه جبريل بالوحي القرآني¹⁶ ليحمل رسالة رب العالمين ويبلغها إلى الناس كافة قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾¹⁷، وقوله أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَذَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِأَذِينِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾¹⁸.

ولتأييد رسالته الربانية أعطي معجزات معنوية وحسية ، أما المعنوية فأعلاها وأعظمها القرآن الكريم الحاوي لعلوم الأولين والآخرين وتحدى به الجن والإنس أن يأتوا بمثله فعجزوا، يضاف إلى ذلك كمالات أخلاقية لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾¹⁹ ، أما الحسية فنحنها ماهو سماوي كانشقاق القمر، ورد الشمس بعد مغيبها، واستسقاؤه عليه الصلاة و السلام ربّه لأمته حين تأخر المطر، ومنها ما هو أرضي كنبع الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه، وحنين الجذع شوقا إليه وغيرها²⁰ ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾²¹ .

2 - فصاحته المنفردة :

يرى العقاد أنّ الفصاحة هي صفة تجتمع في الكلام وهيئة النطق به وفي موضوعه، وقد تكامل ذلك في فصاحة محمد إذ يُعدّ أفصح ناطق بالضاد وأعرب العرب، فقد أوتي جمال النطق والكلام والموضوع²²، و خير من وصفه هو عائشة رضي الله عنها إذ قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسرُّ سرُّدكم هذا، وَلِكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنَةٍ، فَضْلًا، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ»²³.

كان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب، " لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإيلاج في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه؛ ولا تستزله الفجاءة وما يئده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكمة، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقاً يتصفح منه صاعداً أو منحدراً؛ ثم أنت لا تعرف له إلا المعاني التي هي إلهام النبوة، ونتاج الحكمة، وغاية العقل، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام وليس فوقه مقداراً إنساني من البلاغة والتسديد وبراعة القصد"²⁴.

وما هذه الفصاحة إلا توفيقاً من الله تعالى، إذ بعثه إلى العرب الذين ينقادون من أسنتهم، ولهم في ذلك مقامات مشهورة في الفصاحة

والبيان، ومتفاوتون في معرفة اللغة فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم المضطرب والجافي، ومنهم الخالص في منطقته وذو اللوثة، فكان عليه الصلاة والسلام يعلم حقائق اللغة وأسرارها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، فيكون أفصحهم خطاباً، وأبينهم عبارةً، وأسدهم لفظاً، ولم يُعرف ذلك لغيره من العرب²⁵.

إنفرد عن فصحاء العرب من حيث أنه " مُنَزَّه عن النقص الذي يعتري الفصحاء من جهتها أحياناً كثيرة وقليلة: لأنها طبيعية فيه؛ ولأن من ورائها تلك النفس العظيمة الكاملة التي غلبت على كل أثر إنساني يصدر عنها، ... وهي من الجهة اللغوية مما انفرد به نبينا - صلى الله عليه وسلم - في عريته، وما يمنعه منها وإنما أنزل القرآن بلسانه لسان عربي مبين " ²⁶.

هناك عاملان أساسيان في الفصاحة: الأول تمثّل في أنه توفيق من الله و إلهام منه لتكون الحجّة به أظهرَ والبرهانَ القاطعَ على رسالته، أما الثاني فكونه من قريش التي هي من أفصح اللغات وألبنها، " وقد نشأ النبي - ﷺ - وتقلّب في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً، وأعجبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومُتزوّجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة " ²⁷.

3 - بلاغته المنقطعة النظر :

النبي عليه الصلاة والسلام أفصح العرب و أبلغهم بياناً وخطاباً، بلغ من البيان الإنساني أعلى مراتبه لا يبلغ شأوه أحد، فهو يتبوأ المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم.

يرى مصطفى صادق الرافعي أنّ لبلاغة النبوية نسقٌ خاصٌ متميّز يعجز عن بلوغها فصحاء العرب وبلغاؤها، فهو يجمع بين الخالص من سرّ اللغة والبيان والحكمة ويشرح ذلك ويقول: " أما اللغةُ فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمنصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان فبيان أفصح الناس نشأةً، وأقواهم مذهباً، وأبلغهم من الذكاء والإلهام، وأما الحكمة فتلك حكمة النبوة، وتبصيرٌ الوحي وتأييدٌ الله، وأمرٌ في الإنسان من فوق الإنسانية." ²⁸.

وصف الجاحظ (ت255هـ) أسلوب كلامه فقال: " وهو الكلام الذي قلّ عدّدُ حروفه وكثُرَ عدّدُ معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف... فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويُسّر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يغم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتبس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلاّ بالصدق... ثمّ لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقفاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ²⁹.

تحدّث القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت544هـ) في فصاحته وبلاغته قائلاً: " وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وحُصّ ببدائع الحكم، وعُلم أسنة العرب، فكان يخاطب كلّ أمة بلسانها، ويحاولها بلغتها، وبياريها في منزع بلاغتها، حتّى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله " ³⁰.

لرافعي موضع يفصل فيه الكلام النبوي فيقول: " إذا نظرت فيما صحّ نقله من كلام النبي - ﷺ - على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية، رأيته في الأولى مُسدّد اللفظ مُحكم الوضع جزل التركيب. متنايسب الأجزاء في تأليف الكلمات: فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثمّ لا ترى فيه حرفاً مضطرباً؛ ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهه عليه؛ ولا كلمة غيرُها أتمّ منها أداة للمعنى وتأتياً لسره في الاستعمال؛ ورأيته في الثانية حسن المعريض بين الجملة، واضح التفضيل، ظاهر الحدود جيّد الرصف، متمكن المعنى؛ واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان " ³¹.

بعدها يضيف قائلاً: " فإذا أنت أضفت إليها ما هناك، من سمو المعنى؛ وفصل الخطاب، وحكمة القول، ودنو المأخذ، وإصابة السرّ، وفصل التصرف في كلّ طبقة من الكلام، وما يلتحق بهذه وأمثالها من مذهب - ﷺ - في الإفصاح، ومنحاه في التعبير، مما حُصّ به دون الفصحاء، وكان له خاصّة، من عظمة النفس، وكمال العقل، وثقوب الذهن ومن المنزعة الجيدة، واللسان المتمكّن - رأيت من جملة ذلك نسقاً في البلاغة قلماً يتهياً في مثول أغراضه وتساوق معانيه لبلوغ من البلغاء، إذ يجمع الخالص من سرّ اللغة ومن البيان ومن

الحكمة - بعضها إلى بعض " 32 .

يرى عباس محمود العقاد أن السمة الغالبة على أسلوب النبي ﷺ في كلامه المحمود بين أيدينا هي سمة الإبلاغ وأقوى ما فيها أنه أوتي جوامع الكلم 33 ، ويعرفها قائلا : " اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات " 34 .

وقد جاء شرح لمعناها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه إذ قال : " سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ، وَبَيَّنَّا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: " وَبَلَّغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ: أَنَّ اللَّهَ يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُكْتَبُ فِي الْكُتُبِ قَبْلَهُ، فِي الْأَمْرِ الْوَاحِدِ، وَالْأَمْرَيْنِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ " 35 .

حدّد محمد الصالح الصديق معناها قائلا : " المراد بجوامع الكلم القرآن الكريم سمي به لإيجازه واحتوائه على المعاني الكثيرة، والأسرار الدقيقة، والإشارات اللطيفة، ولاشتماله أيضا على ما جمعه الكتب السماوية من العلوم السنية، والمعاني الأخبار... وكلام الرسول أيضا جوامع، قليلة اللفظ، كثيرة المعنى، بعيدة المرمى، صادقة لا تحتل الصدق والكذب " 36 مدعما بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) ﴾ 37 .

جاء ذلك المعنى في صحيح مسلم حينما شُرح الحديث نفسه وقيل بأنّ الجوامع يقصد بها القرآن حينما جمع الله تعالى المعاني الكثيرة في ألفاظ يسيرة، وكلام عليه الصلاة والسلام كان بالجوامع بمعنى قليل اللفظ كثير المعنى " 38 ،

وقد أورد مصطفى صادق الرافعي بعض الأمثلة عن جوامع الكلم النبوية وشرحها شرحا بلاغيا وبيانيا أذكر مثالين للتوضيح فيقول: " وقوله في صفة الحرب يوم حنين: " الآن حَمِي الوطيس " والوطيس: هو التور مجتمعة النار والوقود، فمهما كانت صفة الحرب، فإن هذه الكلمة بكل ما يقال في صفتها، وكأنما هي نار مشبوبة من البلاغة تأكل الكلام أكلا، وكأنما هي تمثل لك دماء نارية أو ناراً دموية! وقوله في حديث الفتنة: هذنة على دخن، والهدنة: الصلح والموادعة والدخن: تغير الطعام إذا أصابه الدخان في حال طبخه فأفسد طعمه. وهذه العبارة لا يعدلها كلام في معناها، فإن فيها لونا من التصوير البياني لو أنبئت له اللغة كلها ما وفّت به، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة وليناً وانصرافاً عن الحرب، وكفّاً عن الأذى؛ وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة فإذا بني الصلح على فساد، وكان لعلّة من العلل، غلب ذلك على القلوب فأفسدها، حتى لا يسترح غيره من أفعالها، كما يغلب الدخن على الطعام، فلا يجد أكله إلا رائحة هذا الدخان، والطعام من بعد ذلك مشوب مفسد " 39 .

بعدها يواصل الشرح فيقول : " ثم معنى ثالث، وهو النكته التي من أجلها اختيرت هذه اللفظة بعينها، وكانت سرّ البيان في العبارة كلها، وبها فضلت كلّ عبارة تكون في هذا المعنى وذلك أنّ الصلح لا يكون إلا أن تطفأ الحرب. فهذه حربٌ قد طفئت نارها بما سوف يكون فيها ناراً أخرى. كما يلقي الحطب الرطب على النار تخبو به قليلاً، ثم يستوقد فيستعر فإذا هي نار تطفى، وما كان فوقه الدخان فإنّ النار ولا جرم من تحته، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى كما ترى، حتى ليس في الهدنة التي تلك صفتها معنى من المعاني يمكن أن يتصور في العقل إلا وجدت اللون البياني يصوره في تلك اللفظة لفظة " الدخن " . " 40

جمع محمد الصالح صديق الأحاديث النبوية الدالة على جوامع الكلم في كتابه " جوامع الكلم النبوية " ، أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر :

- " بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ " رواه البخاري ومسلم
- " الصَّوْمُ جُئَةٌ " رواه البخاري
- " الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا " أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى
- " أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا " أخرجه الترمذي وأحمد وابن حبان
- " أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ " أخرجه البخاري ومسلم
- " مِثْلُ الْقَلْبِ مِثْلُ الرِّيشَةِ تَقْلِبُهَا الرِّيحُ بِفَلَاةٍ " رواه ابن ماجة عن أبي موسى الأشعري
- " مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " أخرجه الترمذي
- " يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ " رواه مسلم عن جابر

- " أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك " أخرجه جمع من الأئمة الكبار كأبي داود والترمذي و الدارقطني والطبراني والبيهقي وغيرهم
- " خيرُ الصداق أيسرُهُ " أخرجه أبو داود وصححه الحاكم
- " إِيَّاكَ وَكُلُّ أَمْرٍ يُعْتَدَرُ مِنْهُ " رواه الديلمي في مسند الفردوس وسنده حسن والحاكم
- " الصمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيلٌ فَاعْلُهُ " أخرجه العسكري عن أبي الدرداء
- " أفلح من رُزق لَبًا " أخرجه البخاري والبيهقي
- " من تشبَّه بقرم فهو منهم " أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان
- " ما عال من اقتصد " رواه أحمد عن ابن مسعود، ورواه الخطيب عن أنس، والطبراني والبيهقي عن ابن عمر
- " أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه " رواه ابن ماجه
- العلماء أمناء أمتي " أخرجه الديلمي
- " الإسلام يعلو ولا يُعلَى " أخرجه الدارقطني

وخلاصة القول فإنَّ الغوص في سرِّ جمالية البيان النبوي بحر عميق لا قعر له،

ومحاولتي للكشف عنه هو غيض من فيض، وقطرة من بحر، وقد خرجت بالنتائج الآتية :

- مجد عليه الصلاة والسلام يمثل الكمال المطلق في التكوين الإنساني والعلمي والروحاني والخُلقي وقد تجسّد ذلك في البيان النبوي الذي فاق كلام أفصح الفصحاء وأبلغ البُلغاء .
- البيان النبوي في فصاحته وبلاغته يتبوأ المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم
- للبلاغة النبوية نسق خاص متميِّز يعجز عن بلوغها بلغاء العرب وفصحاؤها تمثّل في الجمع بين الخالص من سرِّ اللغة ومن البيان ومن الحكمة
- مجد عليه الصلاة والسلام هو أفصح العرب لسببين : الأول : أنه توفيق من الله تعالى وإلهام منه، والثاني: أنه من قريش التي هي من أفصح اللغات وأبينها .

الهوامش :

- 1 النساء : 63
- 2 عتر نور الدين : في ظلال الحديث النبوي، دار الهدى، الجزائر، ص8
- 3 صححه الترمذي وحسنه ، الترمذي: سنن الترمذي، تح أحمد محمد شاكر، شركة مصطفى البابي، مصر، ط2 ، ج5 ، 1395هـ و1975 ، باب ما جاء في السنة واجتتاب البدع، رقم:2676 ، ص44
- 4 ينظر: أبو زهرة محمد بن محمد : خاتم النبيين ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، ج1، 1425هـ ، ص161
- 5 السيوطي جلال الدين: جامع الأحاديث، ج2، دت، باب الهمزة مع الدال ، ص88
- 6 المائدة: 67
- 7 ابن الحجاج مسلم: صحيح مسلم، تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، رقم الحديث: 1782 ، ص1782
- 8 البخاري: صحيح البخاري ، تح محمد الناصر ناصر، دار طوق النجاة، ط1، ج5 ، 1422هـ، ص44
- 9 ابن حنبل أحمد بن محمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط1، ج3، 1421هـ و2001 ، رقم الحديث: 307 ، ص1788
- 10 ابن الحجاج مسلم: صحيح مسلم، ج4، باب في أسمائه ﷺ ، رقم الحديث: 124 ، ص1828
- 11 ينظر: ابن سويلم محمد بن محمد: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ص179 و180
- 12 ينظر: ابن كثير إسماعيل بن عمر: معجزات النبي ﷺ، د.د ، د.ط ، د.ت ، ص18
- 13 ابن حنبل أحمد بن محمد : مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج40 ، ص9

- 14 آل عمران: 159
- 15 القلم : 4
- 16 ينظر: ابن سويلم محمد بن محمد: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة ، ص259
- 17 سبأ : 28
- 18 الأحزاب : 45
- 19 القلم: 4
- 19 المائدة: 67
- 20 ينظر: ابن كثير إسماعيل بن عمر : معجزات النبي ﷺ، ص7 و17 و25 و30 و47 و57 و121
- 21 النساء: 113
- 22 ينظر: العقاد عباس محمود : عبقرية محمد، دار الرحاب ، الجزائر، د.ت ، ص 25 و 26
- 23 الترمذي محمد بن عيسى : الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية ، تح سيد بن عباس الجليمي، المكتبة التجارية، مكة، ط1، 1413 هـ و1993، ص183
- 24 الرفاعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423 هـ و2003 ، ص194
- 25 الرفاعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص195
- 26 المرجع نفسه ، ص203
- 27 المرجع السابق ، 196
- 28 المرجع نفسه ، ص221
- 29 الجاحظ : البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال ، بيروت، ج2، 1423 هـ، ص13 و14
- 30 أبو زهرة محمد بن محمد : خاتم النبيين ﷺ، ج1، ص168
- 31 الرفاعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص220 و221
- 32 المرجع نفسه، ص221
- 33 ينظر: العقاد عباس محمود : عبقرية محمد، ص78
- 34 المرجع نفسه ، ص86
- 35 البخاري : صحيح البخاري، ج9، ص36
- 36 الصديق محمد الصالح : جوامع الكلم النبوية، دار طليطلة، ط1، 1433 هـ و2011 ، ص7
- 37 النجم: 3 و4
- 38 ابن الحجاج مسلم : صحيح مسلم ، ج1 ، ص371
- 39 مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص223
- 40 المرجع السابق، ص223

Citation Information/Kaynakça Bilgisi

Nahmar, F. Z. (2018) The Secret of the Beauty of the Speech of the Prophet, *Jass Studies-The Journal of Academic Social Science Studies*, Doi number:<http://dx.doi.org/10.9761/JASSS7645>, Number: 70 Autumn I 2018, p. 547-553.